

واقع الحياة الثقافية والفكرية أواخر العهد العثماني ببابليك الغرب

أ/حمدادو بن عمر

قسم التاريخ وعلم الآثار جامعة وهران

تمهيد:

لقد كانت الحياة الثقافية ببابليك الغرب -قبل ان يتولى الباي محمد الكبير الحكم متدهورة للغاية¹، وتتسم بالجمود والتحجر². وكان التعليم ينقصه وسائل التشجيع والتنشيط المعنوي والمادي، وقد وجد ذلك في عهد الباي محمد الكبير، وكانت المدن الرئيسية اليومية التي تشتهر بالعلم تكاد تكون خالية من مؤسسات التعليم وأدواته³. كما كان انتشار الأمية بشكل مريع لمدينة معسكر التي كانت تعد عاصمة بابليك الغرب يومئذ⁴. ولم يكن مجال العلم مفتوحا أمام عامة الناس، بل كان يقتصر فقط على بعض الخاصة، لأنه يتطلب نفقات باهضة ليست في استطاعة كل واحد يرغب في التعلم أو الدراسة، بل كانت قلة هي التي تحتكر هذا الجانب الثقافي، وتتميز به دون غيرها⁵.

ويتجلى هذا الجمود الفكري والركود الثقافي في قول أبي راس الناصر: "...إذ في زمن عطلت فيه مشاهد العلم ومعاهده، وسدت مصادره وموارده، وخلت دياره ومواسمه، وعفت اطلاله ومعامله، لا سيما فن التاريخ والأدب، وأخبار الأوائل والنسب، قد طرحت في زوايا الهجران ونسجت عليها عناكب النسيان، واشرفت شمسها على الأفول، واستوطن فحولها زوايا الخمول،

⁽¹⁾ والسبب في ذلك راجع إلى أن اهتمام السكان كان منصبا -في تلك الفترة- وبالدرجة الأولى على التجارة والاقتصاد بصفة عامة، لأن التجارة كانت تدر عليهم أرباحا طائلة، إلى جانب أنهم كانوا يضمنون بواسطتها على حاجياتهم اليومية أحمد بن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص: 135.

⁽²⁾ الصالح فركوس، الباي محمد الكبير وبعث الحركة الثقافية ببابليك الغرب الجزائري، مجلة الثقافة، الجزائر، ع71، 1986، ص: 16.

⁽³⁾ ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص: 133.

⁽⁴⁾ Mmoires de Thédénat, R.A. Année 1948. Tome 92, pp: 181

⁽⁵⁾ أبو راس الناصر، عجائب الاسفار ولطائف الأخبار، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم: 1632، ص: 18.

يتلهفون عن أنداس العلم والفضائل، ويتأسفون من أنكاس أحوال الأذكىاء والأفاضل، إلى الله المشتكى من الدهر، إذا أساء صبر على إساءته"¹.

على أية حال، فإن بايلك الغرب الجزائري كان يعاني من ركود ثقافي وتحجر معرفي، مثله مثل الجهات الأخرى من الوطن، خاصة طوال القرنين الأول والثاني من الحكم العثماني للبلاد، ذلك أنه قبل مجيء العثمانيين كانت معظم المدن الجزائرية خاصة تلمسان -عاصمة الزيانيين- مجالا خصبا للمجاهدات الثقافية والتيارات الفكرية، كما كانت تزخر بكثرة مؤسساتها الدينية والتعليمية التي أصبحت إشعاعا معرفيا ينير جميع أرجاء القطر الجزائري وخارجه، خاصة في القرن التاسع الهجري².

وقد كان بعث الحركة الثقافية على يد الباي محمد الكبير الذي كان له ايادي بيضاء في تشجيع الثقافة والنهوض بها على أكمل وجه، فشجع العلماء بمساعدات وأجازهم بأموال، وقد نال أبوراس نفسه من هذا العطاء³.

مظاهر ازدهار الحركة الفكرية والثقافية ببائلك الغرب:

يمكن إبراز المستوى الفكري والأدبي والعلمي لهذه الفترة بالوقوف على أهم مظاهر هذه المساهمة العلمية لمتصوفة بايلك الغرب خلال القرنين 17 و18م، وتتجلى هذه المظاهر فيما يلي:

أ- النشاط التعليمي:

أهم ما يستوقفنا ونحن نطلع على المصادر المشار إليها في هذا البحث، ذلك الإقبال المتزايد على الطلب والتحصيل، والتسابق إلى الأخذ عن العلماء، وحضور مجالسهم في الفنون العلمية المختلفة، بالمراكز الثقافية المنتشرة في البوادي والحوضر.

⁽¹⁾ المصدر نفسه، ص: 02.

⁽²⁾ عبد الحميد حاجيات، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، مجلة الأصالة، ع.خاص، جويلية-أوت 1975، ص ص: 136-155.

⁽³⁾ سي يوسف الزباني، دراسة مخطوط عجائب الاسفار ولطائف الأخبار، ص: 140.

يذكر ابن سحنون الراشدي أن له ببلاد بني راشد مطالعة العديد من أمهات الكتب الأساسية التي تخدم الثقافة العربية الإسلامية، كما يذكر أن بها - بني راشد- عددا من خيرة الشيوخ العلماء الذين كان تحصيله العلمي على يديهم وفي مسقط رأسه¹.

ويلتقي أبو راس الناصر في شهادته مع ابن سحنون الراشدي في أن المناطق البدوية كانت تعرف نشاطا علميا وتعليميا، تعج بالعلماء والفقهاء كذلك، ففي مازونة يوجد عدد من العلماء المتضلعين في علم الفقه، يؤخذ عنهم².

أما الحواضر العلمية فكانت تعرف حركة علمية ممتازة، يندرج وجودها في مثل البيئة التي وصفها أنفا، وإذا كانت هذه الحواضر العلمية جميعها في مختلف بايلك الغرب، قد أسهمت في هذه الحركة، فإن حاضرة بني راشد تظلّ المركز والقطب في هذا المجال، لتأتي بعدها حاضرة مازونة بتعدد مجالسها، وكثرة الطلاب بها، ومن أهم العلوم التي كانت تدرس بهذه المدارس الفقه والتفسير، والحديث، والنحو، الفرائض، والسيرة والتوحيد، والمنطق والشعر،...

وقد تعرض ابن سحنون إلى أهم ما يميز العملية التعليمية على عهد الباي محمد بن عثمان من النهم العلمي والإقبال المتزايد على حضور المجالس العلمية المختلفة والحرص على التدوين والكتابة والنسخ، فقال: "وكم من تأليف نشأ بأمره ونال مؤلفه به وافر بره"، ثم كتب: "كان يشتري كتبه بالثمن البالغ ويستكثر منها ويستنسخ ما لم تسمح نفس ماله ببيعه"³. وهذا النشاط

فهذا الوصف وحده كفيلا بإعطاء صورة جلية عن واقع الحركة العلمية والفكرية ببائلك الغرب، وهذا حافز آخر يجعل الكثير من الباحثين

⁽¹⁾ ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني،، نخ: المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، د ط، 1973. ص: 126.

⁽²⁾ المهدي البوعبدلي، "أضواء على تاريخ الجزائر في العهد التركي"، مجلة الأصالة، ع8، ص2، 1972، ص: 273-274.

⁽³⁾ المهدي البوعبدلي، "الرباط والفاء في وهران والقبائل الكبرى"، مجلة الأصالة، ع13، ص3، 1973، ص: 27.

والمهتمين بالانكباب على دراسة تراثنا الذي يزال يحتاج إلى الكشف عن ذخائره ونفائسه دراسة وتحقيقا وتصنيفا وترتيباً. ثم إن تشجيع السلطة العثمانية على بعث الحركة العلمية والفكرية، زاد من عزيمة العلماء المتصوفة الذين وجدوا بعض بايات السلطة العثمانية ملاذ لاستمرارية العملية التعليمية والفكرية عموماً.

إن طبيعة واقعية الفكر ببائلك الغرب الجزائري، لم تقف عند رؤيتها لفنون التصوف والعلم والأدب، بل تجاوزت إلى تجسيد هذه الرؤية في منهج التأليف والتدريس، وما يحمله من اهتمامات فكرية. وسيحاول هذا البحث أن يقف عند بعض الجوانب المتعلقة بالموضوع.

من خلال هذه الحركة الفكرية وملابساتها، برزت جملة من القضايا عبرت عن مدى الاهتمامات الفكرية في الفكر ببائلك الغرب الجزائري، فمسائل التوحيد وتغيير المنكر والنقد، لقيت عناية عند العلماء الذين انكبوا على دراستها ومناقشتها؛ سواء في مناظراتهم أو في مؤلفاتهم. وعرفت هذه القضايا اختلافاً بين العامة والخاصة، ودار نقاش حول البدع بين العلماء باعتبارهم علماء الشريعة الإسلامية، وبين المتصوفة باعتبارهم شيوخاً للزوايا والطرقية. كما ظهرت آراء حول العرف والفتوى... هذه جوانب من اختلاف الرأي كانت متفاوتة في حدة مناقشتها. فحيناً تشدد فتمثل صراعاً محتدماً كما في قضية خلق الأفعال. وحيناً آخر تقل حدة فتمثل مجرد اختلاف في أوجه النظر كما في قضية علم النبي للغيب. وحيناً ثالثاً تتباين الآراء وتتعارض الأهداف كما في قضية تحديد المصطلح الصوفي والعلمي والسياسي. وسيحاول هذا البحث إبراز بعض الخطوط العريضة لأهم الآراء المتباينة التي تعكس اهتمامات فكرية في فكر متصوفة ببائلك الغرب خلال هذا العصر.

ب- المؤسسات التعليمية والثقافية خلال العهد العثماني:

تعد بعض المؤسسات التعليمية ببايلك الغرب من أهم مراكز الاشعاع الثقافي آنذاك، والتي كانت نقطة تحول في حياة أبي راس الذي كان من بين الطلبة الذين اجتهدوا في طلب العلم، والرقى إلى درجة العلماء والفقهاء. وكانت هذه المراكز تتمثل أساسا في المساجد والزوايا والمدارس والمكتبات، ومن بين هذه المعاهد نذكر على سبيل المثال:

1- المساجد:

كثيرا ما يختلط على الباحث اسم الجامع والمسجد والزاوية، ذلك ان بعض الجوامع والمساجد كانت تابعة لزوايا معينة، كما أن بعض الزوايا كانت تابعة لجوامع ومساجد معينة، فالتداخل ليس في الاسم فحسب، بل حتى في الوظيفة، فالجوامع والمساجد كانت للعبادة والتعليم، كما أن الزوايا كذلك احيانا، ولكن في الغالب كانت رباطا أو ملجا أو مسكنا للطلبة والغرباء، ومركزا لتلقين الأذكار واستقبال المرددين¹.

وعلى كل فقد كانت العناية بالمساجد ظاهرة بارزة في المجتمع الجزائري المسلم. فلا تكاد تجد قرية أو حيا في المدينة بدون مسجد. "فقد كان المسجد هو ملتقى العباد، ومجمع الأعيان، ومنشط الحياة العلمية والاجتماعية، وهو قلب القرية في الريف، وروح الحي في المدينة. إذ حوله كانت تنتشر المساكن والاسواق والكتاتيب"².

كما كان يجمع بين اهل القرية والمدينة أو الحي خاصة في بنائه وأداء الوظائف فيه، فقد كان تشييد المساجد عملا فرديا بالدرجة الأولى، فالغني المحسن هو الذي يتولى ويقود عملية بناء المسجد والوقف عليه وصيانتة.

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص: 243.

(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص: 243.

كانت المساهمة بالتبرعات ونحوها من طرف أعيان القرية أو الحي¹، وكان مجهود السلطات الحاكمة في هذا المجال لا يتعدى مجهود الأفراد. فالدولة غير مسؤولة على بناء هذه المساجد، وإذا بنى أحد البشوات أو البايات مسجدا فإنما يبنيه من ماله الخاص، مثل الباي محمد الكبير الذي شيد جامعا كبيرا يحمل اسمه (جامع محمد الكبير) بمعسكر، وهو المعروف عند أهالي معسكر بجامع العين البيضاء، "وقد أقام به الباي ستة عشر حوضا للوضوء جلب لها الماء عن طريق القنوات من أرض تتوفر على ينابيع ماء قد اشتراها لهذا الغرض"².

كما أعاد بناء مسجد معسكر العتيق الذي شيد عام 1205هـ/1791م المعروف بجامع سيدي حسن الذي شهد المبايعة الثانية للأمير عبد القادر على الجهاد فهدمه وقام بتوسيع مساحته وإحداث خمسة أحواض للوضوء به جلب لها الماء عبر قنوات وسواقي، كما أبدل محراب هذا المسجد بمحراب آخر بديع الصنع"³، الذي به منارة قريبة من قصر الباي⁴.

ولذا كان مسجد عين البيضاء قليل الوجود من بلد المعسكر⁵ فبالرغم من ظهور المدارس ابتداء من القرن الخامس الهجري إلى غاية مجيء العثمانيين بالجزائر فإنها لم تستطع أن تنافس المساجد أو تقلل من قيمتها العلمية، وإنما تعايش الإثنان جنبا إلى جنب والاضطلاع برسالة التربية والتعليم في العالم الإسلامي⁶، لتتحول هذه المساجد فيما بعد إلى جامعات تستقطب عددا كبيرا من الطلبة والعلماء.

⁽¹⁾ المرجع نفسه، ص: 243.

⁽²⁾ ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر - العهد العثماني- المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 1984، ص: 249.

⁽³⁾ ناصر الدين سعيدوني، الجزائر في العهد العثماني، ص: 248.

⁽⁴⁾ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 260.

⁽⁵⁾ الأغا ابن عودة المازري، طلوع سعد السعود، تحقيق يحي بوعزيز، ص: 295.

⁽⁶⁾ العيد مسعود، حركة التعليم في الجزائر، العهد العثماني، مجلة مسيرتا، وزارة التعليم والبحث العلمي، ع 3، 1980، ص: 64.

2- الزوايا:

إن مفهوم العلم في الفكر الإسلامي يخدم العقيدة، فيثبت أركانها ويعمق الإيمان بها ويجلو إشكالاتها. وترتكز أسس هذه العقيدة على المجهود الروحي والأخلاقي الذي يبذله الإنسان في دخيلة نفسه، ليحقق مجالا أرحب يحمله على إدراك الحق والنور. ومن خلال هذا الحضور كان اهتمام متصوفة بايلك الغرب الجزائري من علماء ورجال زوايا بالسنة والتصوف. وخاصيته في نزوع رؤيته إلى الفقه؛ مركزا على الزوايا حيث قامت بحركة علمية حققت نشاطا، تفاوتت فعاليتها، فحفظ تراث الأمة الروحي من الزوال. ولم يكن عملها يقتصر على الذكر والأوراد، بل تعدى ذلك إلى التعمق العلمي في أكثر الفنون. كما كانت الزوايا مؤسسات تعليمية اضطلعت بدور محاربة الجهل في شتى صوره، إلى جانب نشر الوعي الفكري في مختلف حقوله.

ولعل الزاوية القادرية تأتي في مقدمة الزوايا التي حققت نهضة علمية، فاعتنت بالعلم وتكوين العلماء، وتنوير أفراد المجتمع اعتناء بالغاً، فكانت " أعظم زاوية كانت ببائلك الغرب، انتشر منها العلم وانتعش، بعد أن اضمحل أو كاد"¹. وقد تبعها عدة زوايا أخرى مثل زاوية مصطفى الرماصي، وزاوية أبي راس الناصر، وزاوية المشرفي، وزاوية المازوني، وزاوية الخطابي، وزاوية التلمساني؛ حيث تكاثرت فيها عدد المشتغلين بالتدريس لما كان بها من معاطات العلوم، والدؤوب على درسها وإقراءها ليلا ونهاراً، ما تخرج به من جماعة من صدور العلماء وأعيانهم حتى كانت الرحلة إليها (ببائلك الغرب) لا يعدوها الطالب ولا يأمل سواها الراغب. وكانت بها خزائن عظيمة للمخطوطات. فبدت بهذه المكانة العلمية تضاهي حاضرة فاس ومراكش والقيروان وغيرها. وقد حاول الباي محمد بن عثمان الكبير وقبله الباي مصطفى بوشلاغم، أن

⁽¹⁾ ناصر الدين سعيدوني، الجزائر في (التاريخ) العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1984، ص: 100.

يشجع الدراسة في كل من الحواضر العلمية ذات الإشعاع الفكري آنذاك كمازونة والراشدية وتلمسان، لمحاولة النهوض بنفوذ الزاوية العلمي¹.

2- المدرسة:

هي المكان المخصص لإلقاء الدروس بها، ولا توجد إلا في بعض المدن الرئيسية أمثال: معسكر، وهران، تلمسان، وكانت بهذه المدارس غرف يسكنها الطلبة المسافرين²، وقد عرف أبو راس الناصر المدرسة التي نحن بصددتها، مدرسة التعليم الثانوي والعالي إن صح التعبير، بأنها هي التي "تبني لدراسة العلم، أي لتعليمه وتعلّمه"³.

فمن الواضح والجلي ومن خلال رأي أبي راس، أن المدرسة لم يكن المقصود من ورائها الزاوية أو المسجد. بل هي مدرسة مستقلة متخصصة في التعليم وحده بشطريه الثانوي والعالي⁴. وفي هذا الصدد ذكر أبو راس أنه كان في مدينة الجزائر على عهده "مدارس" كبيرة، مثل المدرسة القشاشية⁵، كما كانت المدرسة المحمدية في معسكر، وعندما وصل إلى وهران قال: "إن المدارس بالمعنى الذي قصده: قد درسها الكفرة (أي الإسبان) وكفوا رسمها" فلم يبق في رأيه في وهران لدراسة العلم سوى المساجد⁶، وتلعب المدرسة في المدينة نفس الدور الذي تلعبه الزوايا في الريف⁷.

⁽¹⁾ الأغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تخ: يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، ط1، ص: 275.

⁽²⁾ ابن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكدشاشية، ص: 59.

⁽³⁾ أبو راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ص: 79.

⁽⁴⁾ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص: 281.

⁽⁵⁾ المدرسة القشاشية التي أشار إليها أبو راس حسب ترجيح جمع من الباحثين إلى جامع القشاش، والذي يعود على العهد السابق بالعثمانيين، ومدرسة القشاش تعود إلى سنة 1162هـ، حسب أقدم وثيقة تتحدث عن هذه المدرسة (الزوجة) وبمجرد احتلالها من طرف الفرنسيين حولوها إلى مخازن للجيش. المرجع نفسه، ص: 281.

⁽⁶⁾ أبو راس الناصر، عجائب الأسفار، المصدر السابق، ص: 90 (مخطوط).

⁽⁷⁾ Turin. y. Affrontement culturels dans L'Afrique coloniale, Paris, 1971. P :126

ولا يختلف التعليم في المدارس عن التعليم في الزوايا¹، وكان من أهداف المدرسة تحفيظ القرآن الكريم إلى جانب تعليم مبادئ القراءة والكتابة وبعض العلوم الأخرى، كالحديث والنحو واللغة والفقه والتوحيد، واستكمال هذه الدراسات بعلم الحساب وقراءة المؤلفات الطبية لابن سينا، إلا أنها كانت قليلة بسبب اشتغال العلماء بالعلوم الآنفة الذكر². ولم يكن العلماء يقتصرون على ما في الكتاب من المادة العلمية وإنما كانوا يثرونها بروافد أخرى من أمهات الكتب....، ولم يقتصروا على طريقة لشرح النصوص وحدها، وإنما كانوا يناقشون المسائل ويرجحون رأيا على آخر³. ومن أهم المدارس بمعسكر نذكر منها:

1- المدرسة المحمدية:

تعد من أهم المدارس التي أسسها الباي محمد بن عثمان، بالغرب الجزائري، والتي كان لها صدى واسع في العالم العربي والإسلامي⁴. والتي تعتبر أكبر معهد علمي يضم أساتذة أكفاء⁽⁵⁾، متفرغين لمهنة التعليم لا غير، إلى جانب الآلاف من الطلبة والتلاميذ الذين سارعوا إلى الإقبال على العلم بلهدف شديد⁶، وهي التي أشار إليها أبو راس بقوله: "وهي المدرسة التي كاد العلم أن ينفجر من جوانبها"⁷.

وما يمكن الإشارة إليه هو أنه رغم اهتمام الباي بالجامع الأعظم الذي بناه بمعسكر، فإنه قد أسس مدرسة بجانبه. لأن فكرة المدرسة المستقلة عن الجامع لم تكن تدور في خيال هذا الباي، فبناؤها على هذا النحو المذكور كان

¹ Turin.y.Affrancement culturels dans L'afrique colonial,p :126

² I.bid,pp :125-126.

⁽³⁾ المهدي البوعبدلي، الثقافة والتوجيه بالجزائر، (بصرف من محاضرة ألقاها في المؤتمر الإسلامي المنعقد سنة 1970م)، ص: 13.
⁽⁴⁾ سميت بهذا الاسم نسبة إلى محمد بن عثمان الكردي، إنما لقب بـ"الكبير" نظرا لتفوقه وبراعته في إدارة شؤون بابل، خاصة بعد استرجاع مدينة وهران والمرسى الكبير من الاحتلال الإسباني.

A.Gorgnos, RA, 1^{ere} Année, n 5 juin 1857. P :405.

⁽⁵⁾ من بينهم: أبو راس الناصر، محمد بوجلالي (الجيلالي)، الطاهر بن حواء، محمد المصطفى بن زرقة الدحاوي.

⁽⁶⁾ صالح فرّوس، الباي محمد، المرجع السابق، ص: 17.

⁽⁷⁾ أحمد بن معنون الراشدي، النفر الجماني في ابسام النفر الوهراني، المصدر السابق، ص: 127.

متماشيا وتقاليدي التعلم الاسلامي عموما، فالواضح أن المدرسة كانت ثانوية بالنسبة للجامع، فالأوقاف مثلا تنص على نفقة المدرسين في الجامع دون المدرسة¹. ولقد تول أو راس مهمة التدريس بهذه المدرسة فالتف حوله عدد هائل من الطلبة.

كان الطلبة يبادلون شعور اساتذتهم فيقدرونهم ويحترمونهم لما يحملونه من علم، واعترافا بما عليهم من فضل بما بذلوه من جهود جليلة من أجلهم. ثم إن المتصفح لكتب التراجم، ومذكرات العلماء، وما كتبوه عن مشايخهم، يلمس مدى الحب الذي كانت تنبض به قلوب الطلاب نحو أساتذتهم، وما فاضت به أقلامهم.

ونستشهد في هذا الصدد بما ذكره محمد بن علي السنوسي في معرض حديثه عن أساتذته الذين تتلمذ على أيديهم: "ومنهم شيخنا وشيخ مشايخنا الهمام الحافظ الإمام، سيدي محمد بوراس المعسكري البلد -رحمه الله- كنت أتردد إليه كثيرا واستفيد منه استفادة عظيمة، لتمام حفظه وإتقانه لكل فن حافظا لمذاهب الائمة الأربعة، جواب كل ما سئل عنه بين شفتيه، وغالب منأخذنا عنه من أهل ناحيته أخذ عنه"².

ومن أهم العلوم التي كانت تدرس في هذه المدرسة، لاسيما في المرحلة الخيرة من العهد العثماني، كتب الفقه مثل: حواشي شرح الشيخين الزرقاني والخرشي³. وهما الحاشيتين اللتين اعتمدهما أبو راس في تدريسهما للطلبة، وحاشية الشيخ مصطفى الرماصي الذي كان آية عصره. إلى جانب كتب النحو مثل: شرح الشيخ المكودي، وفي اللغة كتاب القاموس للشيخ فيروزآبادي،

⁽¹⁾ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص: 281.

⁽²⁾ ابن سحنون الراشدي، الثغرائلجاني، ص: 66 (من هامش مقدمة المحقق رقم: 53).

⁽³⁾ وجدنا تعليقا على هذه الحاشية ضمن مخطوط من مسائل الرعاة، بدايته: " الحمد لله، فالمؤلف أي أبو راس، سلك طريقة في كتابه منهاجا عجيبا، فجعل الباب فصلا، وجعل الفصل رأس كلام نصيب، وجعل الكتاب بابا فقسمة بين تفصيل وتويب." مؤلف مجهول، من مسائل الرعاة، زودنا به الأستاذ بليل حسني، الورقة الأخيرة من المخطوط.

ومقامات الحريري، وفي الأصول شرح الشيخ المحلي. فضلا عن كتب التصوف، المنطق، الفلك وعلم البيان إلى غير ذلك من العلوم النقلية والعقلية الأخرى. وكان العلماء يحظون بمنزلة عظيمة لدى المواطنين، وكان نفوذهم على طبقة العامة كبيرا. وكانت الطبقة الموسرة من جانبها تقلد أنماط سلوكهم، وكل فرد منهم يجد أنه من الشرف له أن يستقبل واحدا من هؤلاء العلماء في بيته. ومهما يكن. فقد حفلت مظان السير والتراجم بصفحات ناصحة لما كان عليه العلماء في ذلك العصر من عفة وتواضع وسماحة وإيثار، وعلاقاتهم بطلبتهم، ومحاولة منهم في افادتهم وتزويدهم بما ينفعهم من علوم دنيوية وأخرية.

2- مدرسة القيطنة:

هي الأخرى من المدارس التعليمية الكبيرة بمعسكر خلال المرحلة الأخيرة من العهد العثماني بالجزائر. فقد تأسست هذه المدرسة بمنطقة القيطنة، بالقرب من بوحنيقية، حوالي سنة (1200هـ/1787م)، على يد مصطفى بن المختار بعد رجوعه من بغداد. وبعد وفاته في عين الغزال بليبيا، تسلم أمور ادارتها الشيخ محي الدين والد المير عبد القادر.

وكانت هذه المدرسة من المدارس التعليمية الهامة في الجزائر، حيث جمعت بين كل مراحل التعليم من أدنى مرحلة حتى اعلاها. كما كان بها ست حلقات تعقد لجلسات العلم، بمعينة عدة أساتذة. وكانت تضم عددا كبيرا من الطلاب يتراوح عددهمما بين (700 و1800) طالب علم دائمي الدراسة، مع العلم بان عدد الطلاب في كافة انحاء الجزائر كان هائلا حول العلماء¹.

وقد تطورت المدرسة تطورا كبيرا، وأصبحت تلقب "بمعهد القيطنة" نظرا لتوافد الطلبة والعلماء عليها. واکن من العلماء الذين درسوا بها أبو راس الناصر. وهذا مما يدل على علو همتها، وذكرها في الآفاق. فنجد أن أبا راس قد

⁽¹⁾ مجموعة أساتذة، معسكر رجال وتاريخ، الحياة الروحية في الإسلام، ملتقى الفكر الإسلامي الواحد والعشرين، وزارة الشؤون الدينية، معسكر، 26 أوت/ سبتمبر 1987، ج1، ص: 13-15.

درس في هذا المعهد الديني الكبير، بدليل قوله: " فذهبت للقيطنة، وقد اجتمعت جموع من الطلبة"¹. فهذا مما لاجدال فيه أن مدرسة القيطنة كانت مدرسة معترف بها من قبل علماء الوطن أولا ثم من علماء الأمصار ثانيا.

ونشير إلى أنه لم تقتصر معسكر على المدرستين المذكرتين سالفاً، بل تعدتها إلى مدارس أخرى كانت في الوقت نفسه زوايا تقوم بالدراسة والتعليم. نذكر منها: مدرسة زاوية سيدي علي شريف بسيق، مدرسة زاوية سيدي محمد بن قالة الحسني بالكرط، مدرسة زاوية مصطفى بن الطيب بعقاز، مدرسة زاوية سيدي علي بلحجاج بني شقران، مدرسة زاوية سيدي قادة. التي كان لها الفضل الكبير في إعطاء المعلومات، وتزويد الطلبة بالأفكار والفتاوى والآراء الفقهية وغيرها.

أما عن أهم العلوم التي كانت تدرس في هذه المدرسة، ففي غالبيتها علوم شرعية وعقائدية، وبعض من المجالات الأدبية. وبما أن مؤسس هذه المدرسة من المتصوفة، فإن الطابع الغالب عليها هو المجال العقائدي أكثر من العلوم الدينية الأخرى. من بين هذه العلوم ذكر على سبيل المثال: كتب التوحيد للشيخ السنوسي، كتب الحكم العطائية، أما الفقه: كتب مختصر الشيخ خليل، وحواشي الشيخ الداسوقي والشيخ الدردير، وفي الحديث: كتاب صحيح البخاري، وكتب الأئمة الستة المعتمدة. لقد كانت المدارس اشعاعاً ثقافياً ساعد على تخريج.

لقد كان لهذه المدارس تأثيراً كبيراً على شخصية أبي راس وحتى في تكوينه العلمي والمعرفي، وهذا يتجلى من خلال تعليمه بهذه المدارس من جهة ومن خلال تدريسه بها، وإشرافه على مجموعة هائلة من الطلبة الذين يبلغ عددهم في غالب الأحيان 780 طالب.

4- المكتبات:

لا تقل المكتبات أهمية عن سابقاتها من مساجد وزوايا ومدارس. وتشمل المكتبات العامة والخاصة، وهي التي كانت تضم أشتات المخطوطات في مختلف

⁽¹⁾ أبو راس الناصر، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 1990، ص: 24.

فنون الوقت، كما كان يقصدها الطلبة والأساتذة من جميع النواحي للمطالعة فيها، لا سيما المكتبات العامة التي كانت وقفا وحبساً على المساجد والزوايا والمدارس.

وقد كانت من بين المكتبات ذات الأهمية البالغة بمعسكر مكتبة أبي راس الضخمة التي تضم أنفس الذخائر، والمخطوطات النادرة وحتى المؤلفات التي ألفها أبو راس نفسه، والتي لم تحقق ولم تطبع إلى يوم الناس هذا. وتعرف هذه المكتبة باسم "مكتبة المذاهب الأربعة"، نظراً لاحتوائها على مؤلفات أئمة المذاهب الأربعة، وحسب قول أحد الباحثين أن هذه المكتبة كان يقصدها علماء عدة من فاس ومكناس وتونس وليبيا... إلخ.

وتشهد عبارات الباحثين الفرنسيين الذين شاهدوا وجمعوا المخطوطات من مكتبات المدن الجزائرية غداة الاحتلال، أنهم كانوا مندهشين من كثرة الكتب المؤلفة التي وجدوها، ومدى تنوعها، ومن جمالها، والعناية بها. فقد اعترف بذلك أدريان بيروبرجد الذي رافق الحملة الفرنسية على قسنطينة وتلمسان ومعسكر¹. لقد لعبت المكتبة دوراً كبيراً وفعالاً في حياة أبي راس العلمية والثقافية في العصر العثماني، مما جعلته يسعى جاهداً في خدمة العلم. ولا زالت إلى حد الآن تؤدي ما عليها من أجل تسهيل عملية البحث والمطالعة للباحثين. وهناك واقع بخرله علاقة بالمجال المراد دراسته؛ إن لم نقل جزء لا ينفك عن بالواقع الثقافي والفكري ببائلك الغرب خلال أواخر العهد العثماني.

الواقع الأدبي:

إذا كان الفكر ببائلك الغرب الجزائري قد سادته النزعة الفقهية، فإن هذه النزعة قد انعكست على ثقافته وحضارته، فبروز المتصوفة في مجال الفقه، وعنايتهم بالاتجاه السني في التصوف، ودفاعهم المستميت عن الإسلام، وانصرافهم عن الذات، تلك عوامل جعلت شخصية الأديب منزوية

⁽¹⁾ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج 1، ص: 287. وأنظر أيضاً: تاريخ الجزائر، ج 3، ص: 317.

خلف شخصية الفقيه الذي يهتم بالعلم قبل الفن، وبالحقيقية قبل الجمال¹، غير أن ذاك الفن وهذا الجمال ليسا منقطعين عنه، فقد لونتاهما الاهتمامات الفكرية بالواقع. ومن ثم كان "الأديب لا ينال حظوة إلا إذا كان له مع أدبه إلمام بالفقه"². فيتخذ الأدب بحديه- الشكل والمضمون- مفهوما يصطبغ بالصبغة الدينية، وإذ ذاك يتم الالتزام بالواقع وبالفن.³

إن للأدب في بابلك الغرب حضورا في الفكر المغاربي، وتنوعا في الثقافة المغاربية، وتميزا في الإنتاج الفكري عموما. لكن غياب الصورة الأدبية واستقلالية الإبداع، جعل الأدب ببابلك الغرب الجزائري حقل معرفي يتطور ببطء عبر عصوره، نظرا لغلبة النمطية في التفكير، وسيادة التبعية في الرؤى، مما لَوّن ذلك الحضور بثقافة إسلامية تفسر عمق صوره، وتحدد مدى خياله. فوفرة قصائد المولديات، والرسائل الديوانية والإخوانية والرحلات العلمية، تعكس اهتماما أدبيا واضحا مع الاهتمامات الفكرية الأخرى. لأن الطابع الموسوعي للثقافة ببابلك الغرب الجزائري، وكذا للثقافة الإسلامية، يتميز بمدى الالتزام بالواقع وبالتعبير عن مجالاته قصد تحقيق مستوى لمسؤوليات المفكر، كي يفهم واقعه ومن ثم يتطور وينمو.

هذه الرؤى الشائكة هي التي جعلت مدلول كلمة أدب يتميز بطابع العصر، ويتحدد مفهومه بموسوعية بعيدة عن تحديد ضيق، أو تقصير في الرؤية. والأدب بهذا المعنى يعكس الثقافة والحضارة في مجال تأثرها بالمقومات العامة لشخصية البايك⁴، التي تعتمد في تكوينها الثقافي على العلوم الشرعية، والعلوم الأدبية؛ ومن ثم يعبر التداخل بينهما عن التمازج الثقافي في الفكر ببابلك الغرب الجزائري. غير أن هذا التمازج حين تتغلب فيه

¹ محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، ص:5.

² تصدير لمحمد الفاسي لكتاب أبي المطرف بن عتبة المخزومي للدكتور محمد بن شريفة، ص:3.

3 _

⁴ Cour Auguste, L'établissement des dynasties des chérifs au Maroc et leur rivalité avec les turcs de la régence d'Alger, 1509- 1830, Ernest-Leroux éditeur, Paris, 1904, p:223.

النزعات الذاتية يكون أقرب إلى الإبداع، وحين تتغلب النزعات الموضوعية يكون أقرب إلى التأليف.

لكن رغم تلك العوامل التي حددت المفهوم العام للفكر الجزائري عموما وببايلك الغرب الجزائري بصفة خاصة، ينزع الأدب الجزائري إلى التعبير عن الذات وهمومها، والعصر ومشاكله، ويقوى هذا الاتجاه خلال القرن الحادي عشر الهجري نظرا لتأثير الأحداث وتنافر الزعامات.

وقد لعبت الزوايا ببايك الغرب دورا هاما في الحركة الأدبية، وبلغت الزاوية القادرية شأوا عظيما، فالثقافة الأدبية واللغوية المتينة التي كانت تدرس فيها هي التي أحيت دماء الأدب ببايك الغرب بعد عدم¹. كما نشطت الحركة الأدبية في الحواضر العلمية التي برزت وقد احتفظت لنا المصادر بالعديد من الأشعار والرسائل². وقد أسهمت الزوايا الأخرى بحركة أدبية تمثلت في الرسائل الإخوانية والمدائح النبوية.

إن طبيعة واقعية الفكر ببايك الغرب الجزائري، لم تقف عند رؤيتها لفنون التصوف والعلم والأدب، بل تجاوزت إلى تجسيد هذه الرؤية في منهج التأليف والتدريس، وما يحمله من اهتمامات فكرية.

خاتمة:

لقد كان عهد الباي محمد بن عثمان الكبير ببايك الغرب، عاملا مهما في بعث الحركة الثقافية والفكرية آنذاك. على يد، فتشجيعه للثقافة والنهوض بها، كان له بالغ الأثر على انتعاش الحياة التعليمية والعلمية عموما، فنجدته يشجع العلماء بمساعدات ويجيزهم بأموال، وقد كان أبو راس نفسه من الذين شملهم هذا العطاء.

¹ (الحداري محمد، دور الزوايا والطرق الصوفية في العلاقات بين المغرب وولاية الجزائر، حالة الزاوية الدرقاوية من 1786 إلى 1823م، دكتوراه دولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية 2004-2005، ص:33).

² (الحداري محمد، الدور الاجتماعي والثقافي والاقتصادي في العلاقات بين البلدين، ص:141-160).

كما شهدت فترة العهد العثماني بالجزائر عموما وببايلك الغرب تحديدا؛
تشديد العديد من المباني وقصور الدايات، ومساجد كبرى لازالت آثارها
شاهدة عيان على مدى انعكاس الحياة الثقافية والفكرية بتلك المباني بها
مثل مسجد "الباي" بكل من معسكر ووهران وبعض القرى التابعة لهما؛
وتعتبر هذه المساجد إحدى التحف المعمارية الراقية التي شيدها الأتراك
بالجزائر.